

معجزة خلق الإنسان في القرآن

أ.د/ عبد الفتاح مصطفى غنيمه^(*)

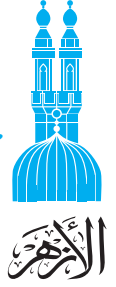
إذا أراد المسلم أن يجعل من مبدأ الحياة وقصة الخلق طريقاً شيقاً للمعرفة الفكرية أوسع وأعمق مما صوره العلم فأمامنا طريق الفلاسفة وتأملاتهم، وإذا أراد المسلم أن يجعل منه موضع إيمان ومشاعر إنسانية وروحية، فأمامه الدين الإسلامي، وهنا وعند هذه المرحلة، حيث يبدو تعدد الطرق، نجد أن العلم والفلسفة والدين يتفقون على أن مبدأ الحياة ونظرية الخلق من مظاهر الألوهية، وأن الألوهية هي الأصل، وهي الغاية من كل هذا الكون، فكل شيء فيه إنما يصبو إليها، ونحن لا نستطيع عن طريق المعرفة الفلسفية أن نقول: إن الله تعالى هو سبب أو علة الوجود، وخالقه ومصوره، وواضع أسسه ونظمه، وإنما نقول: إنه هو الذي يشهد على الأشياء كلها، وليست الأشياء هي الدليل عليه.

لمخلوق، عالم أو متفلسف أن يصل في أسرار الكون إلى علم الخالق، تلك حقيقة هامة وبديهية لأولئك الذين يربطون معجزة الخلق بنظريات من فكر البشر، والحياة والموت هما مما اختص به الله تعالى نفسه. حتى إنه إذا أعطى هذه المعجزة إلى رسول من رسله، كما أعطاه إلى عيسى عليه السلام فإنه يقول: بإذن الله.. فعيسى يقول:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ

إن القرآن الكريم لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود والخلق، ولكنه أشار إليها وسجلها ليظهر الإعجاز الإلهي للإنسان في كل عصر، ومع كل تقدم للعلم والمعرفة البشرية. على أن ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية، شيء لا يجب أن يحدث أو يقال، فالقرآن لا ترتبط صحته باتفاقه مع نظرية علمية أيا كانت، ولكن العلم هو الذي يستمد صحته وبيانه إذا اتفق مع آيات القرآن الكريم. فكل علم مخالف لحقائق القرآن هو علم خاطئ وزائف؛ لأن قائل القرآن هو الله تعالى، وخالق الكون هو الله تعالى، ولا يمكن

(*) أستاذ تاريخ العلوم والتكنولوجيا.



قضايا التجديد

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ
وَأُنَيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

(آل عمران : ٤٩)

ويقول :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ
تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفِخُ
فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ
وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ
كَفَفْتُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

(المائدة : ١١٠)

وهنا يجب أن نلاحظ أن معجزة الحياة
والموت لم ترد إلا ومعها كلمة بإذن الله.
والله تعالى حين أوجد الحياة أبلغنا
بطريقة الخلق ومعجزته فقال في سورة
السجدة :

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ
مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ
مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(السجدة : ٧-٩)

وقال في سورة الحجر :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا
مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾

(الحجر : ٢٨، ٢٩)

وقال عن مريم في سورة الأنبياء :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا
مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

(الأنبياء : ٩١)

وقال في سورة التحريم :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا
فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا
وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴿١٢﴾

(التحريم : ١٢)

وقال :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

(الذاريات : ٤٩)

أي: إن كل مخلوقات هذه الدنيا بدأت
بخلق الله سبحانه وتعالى لذكر وأنثى، ثم
بدأ التكاثر بعد ذلك، وهذه هي بداية الخلق،
وحقائق الكون كما ذكرها الله في القرآن
الكريم هي حقائق أزلية لا يمكن أن تتصادم.
نأتي الآن إلى خلق آدم، أخبرنا الله تعالى
أنه خلق الإنسان من طين، يقول تعالى في
سورة الرحمن :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾

(الرحمن : ١٤)

أي: من عناصر الأرض والتربة التي نعيش





الإعجاز

معجزة خلق الإنسان في القرآن

وكان «ليفنهوك» قد توصل إلى صنع عدسة دقيقة سمكها أقل من ١/١٠ بوصة متقنة الصقل بحيث كانت تريه الأشياء في ضخامة واضحة، أخذ في توجيه عدساته إلى كل شيء يستطيع الحصول عليه، ففحص رأس ذبابة وأصق مخها بالإبرة الدقيقة، وكم أثارت إعجابه التفاصيل الواضحة عندما كان يفحص البذور الصغيرة والبراغيث والقمل لكي يرى التفاصيل التي تعجز العين عن رؤيتها، وفحص بعدسته قطرة صغيرة من ماء المطر فرأى كائنات دقيقة تسبح في هذا الماء.. وكانت الكائنات الدقيقة الجديدة عجيبة وصغيرة وأعدادها كبيرة ومتعددة الطرز، تتحرك وتتمايل وتنقلب ذات الشمال وذات اليمين، فكتب إلى عظماء العلماء في لندن ووصف لهم ما اعتراه من دهشة، وأخبرهم عن رؤية مئات من الكائنات الدقيقة.. فهزت كتاباته العلماء، وسرت بينهم الدهشة ولا سيما رؤيته لأول مرة لأوعية الدم الشعرية التي ينتقل الدم خلالها من الشرايين للأوردة في ذيل السمكة، واكتشف الحيوانات المنوية للإنسان وأماط اللثام عن تلك الكائنات الحية غير المرئية، والتي يعيش بعضها على التهام البعض الآخر، وكان يقول: حياة تعيش على حياة، ولذا يعتبر «ليفنهوك» في تاريخ العلم أول من اكتشف الميكروبات، وترك لمن بعده من العلماء أمثال باستير Pasteur بداية تصنيف تلك الميكروبات.

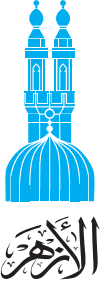
وقد استعان باستير بعدسات ليفنهوك لكشف الميكروبات التي تعيش على اللبن

عليها، والبحث العلمي المعلمي أثبت أن الأرض تتكون من ٢٠ عنصراً كلها موجودة في جسد الإنسان؛ هي الكربون والأيدروجين والأكسجين والنتروجين والفوسفور والكبريت والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والماغنسيوم والحديد والنحاس والكلور، وتكون هذه العناصر ٦٠-٨٠٪ من رماد الجسم، أما الكوبالت والمنجنيز والزنك واليود والخاصين والألومنيوم والبورون فهي توجد بكميات صغيرة جداً في جسم الإنسان. ثم نفخ الله تعالى فيه من روحه، والروح من أمر الله، لم يصل إليها العلم ولن يصل، فتم خلق آدم وخلق حواء من آدم.

بداية خلق الإنسان من النطفة

وحدها:

لقد كان مفهوماً منذ القدم أن الأم لا دخل لها في خلق أبنائها، ولكن «ماء» الرجل ما إن يصل إلى رحم المرأة حتى ينمو ليكون جنيناً ثم وليداً، مثله في ذلك مثل «البذرة» حيث تصادف التربة الطيبة فإنها تنمو وتزدهر. ولم تكتشف طبيعة الحيوان المنوي كذات مستقلة في السائل المنوي «ماء الرجل» (ماء الخليقة) إلا في القرن السابع عشر، في عهد «ليفنهوك» Leeuwenhoek وبالتحديد عام ١٦٧٧م اعتبر الحيوان المنوي حينئذ كائناً حياً له ذاته وصفاته المستقلة، التي بها يمكنه أن ينمو فيكون الجنين في رحم الأنثى، وبعد الولادة يصبح فرداً إنساناً، وقد تصور العلماء آنذاك أن الحيوان المنوي ما هو إلا إنسان صغير الحجم جداً يجلس القرفصاء.



الحيوانات تبدأ حياتها بخلية واحدة، ومن هذه الخلايا أو اللبانات الدقيقة الحية تبنى أجسام النباتات والحيوان والإنسان، والخلية الأولى لتكوين الإنسان هي حصىلة اندماج حيوان منوي (نطفة) من الذكر مع بيضة من الأنثى، والخلية الناتجة تعرف علمياً بالبيضة المخصبة أو الزيغوت Zygote، ولا يمكن للحيوان المنوي (النطفة) وحده أن ينتج كائناً حياً دون مشاركة من البيضة، أي: إن الرجل لا يمكن أن يكون له ولد (أي ابن) دون مشاركة من أنثى، ومن هنا يرجع أمر خلق الإنسان بداية من النطفة للأسباب الآتية:

١- أن بيضة الأنثى لا يمكنها أن تنقسم، وبالتالي لا يمكنها أن تكون جنيناً في رحم الأم إلا بعد أن يخصبها الحيوان المنوي، وما لم يأتها الحيوان المنوي فإنها تبقى بحيويتها على حالتها لفترة زمنية في انتظار إخصابها بحيوان منوي يصلها في الوقت المناسب، فإن أخفقت في أن يصل إليها الحيوان المنوي، فإنها لا تلبث أن تفقد حيويتها فتتلاشى وتمتص أثرها.

٢- النطفة هي السبب الأصيل في تكوين الجنين، وهي التي تبعث النشاط الانقسامي في البيضة بعد تخصيبها، ولا يمكن للنطفة أن تكون الجنين إلا بمشاركة البيضة، والتفسير السابق ينطبق على الإنسان عامة، فلم يحدث أن استطاعت امرأة بمفردها، أي: دون الذكر، أن تنجب، وولادة سيدنا عيسى - عليه السلام - من السيدة مريم، هي معجزة إلهية، والمعجزات أمور خارقة لنواميس

وعلى الخمر، وتوصل إلى أنه إذا سخن اللبن أو الخمر ولو تسخيناً هيناً قبيل درجة الغليان، فإن هذا التسخين يقتل تلك الميكروبات الدخيلة.. وهذه الحيلة اليسيرة هي المعروفة باسم البسترة في صناعة الألبان.. وعلى مقتضاها تعالج منذ ذلك اليوم فتتعقم وتنجو من التلف والتخثر، ومن أعظم ما خطر على فكر باستير أن الميكروب على ضالته قد يدخل جسم الرجل أو جسم الثور أو الفيل وينهي حياته. ولم يكن يجد في هذا خاطر استحالة أو غرابة.

والآن نعاود الكتابة عما جاء بأمر الكتاب، حين نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين منذ قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، لم يكن أمر الحيوان المنوي ووظيفته وطبيعته معروفة، كما أن موقفه من تخليق الإنسان وغيره من الحيوانات لم يكن مفهوماً.

وفى كتب الشريعة والتفسير حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، يعبر عن السائل المنوي بعبارة: «ماء الرجل»، والقرآن الكريم يعبر عنه أيضاً: بـ «الماء المهين» وأحياناً بـ «الماء» فقط، يقول -تعالى-:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾

(السجدة : ٨)

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾

(المرسلات : ٢٠)

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا

وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان : ٥٤)

لكن علماء البيولوجيا المعاصرين، يعرفون عن يقين أن الإنسان وأغلب





معجزة خلق الإنسان في القرآن

جنس واحد فقط، وهل يمكن للحياة أن تستمر بجنس واحد فقد دون الجنس الآخر؟

الإلهام

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٥﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

(المؤمنون : ١٢-١٤).

يقول تعالى :

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾

(النجم : ٤٥ ، ٤٦)

ويتضح مما سبق وبجلاء ودون ارتياب أن إنجاب الإناث والذكور معاً مسئولية الذكر (الزوج) دون الأنثى (الزوجة)، وعليه فليس من الكياسة في شيء ولا من العدالة في قليل ولا كثير أن يحمل زوج زوجته مسئولية إنجاب البنات، كما يشيع في بعض أوساط الجهل والبسطاء من الناس.

الكون ولا يقاس عليها.

وصحيح أن هناك حيوانات أخرى من غير البشر، يمكن لبيضة الأنثى وحدها، ودون احتياج لحيوان منوي، أن تنقسم وأن تنتج الذراري، وهذا شائع طبيعياً في أنواع من الحشرات مثل حشرة المن، كما أن ملكة النحل يمكنها أن تنتج الشغالات في طائفة النحل عن طريق وضع بيض لا تخصبه بحيوانات منوية، وانقسام البيضة على هذا النحو، وتكوين الأجنة فيها دونما حاجة إلى الحيوان المنوي، هي ظاهرة تعرف علمياً باسم «التولد البكري أو العذري» ولا وجود لمثل هذا التكاثر في الإنسان.

٣- إضافة إلى ما سبق، نجد أن الحيوان المنوي هو الشق الوحيد من شقي التناسل، الشق الآخر هو البيضة، ويترتب على هذا التنوع تكوين الذكر والأنثى، بمعنى أن مني الذكر يكون الحيوان المنوي فيه على صورتين مختلفتين، إحداهما إذا قدر لها أن تخصب البيضة نتج عن ذلك جنين ذكر، والأخرى إذا قدر لها ذلك نتج عنها جنين أنثى، ولو لم يتنوع الحيوان المنوي على الصورتين السابقتين لنتج عن الإخصاب

